

## جمع اللغة العربية ونشأة المعاجم (الدوافع-المراحل-الطرائق-القيود)

The collection of Arabic language and the emergence of dictionaries

(Motives - phases - Methods - Restrictions)

إعداد الباحث: يوسف أمير

Email : [amarir49@gmail.com](mailto:amarir49@gmail.com)

طالب باحث بسلك الدكتوراه مختبر الكتابات الأدبية واللسانية -المغرب

المدرسة العليا للأساتذة، جامعة محمد الخامس بالرباط - المغرب

### ملخص:

يسعى هذا البحث إلى تحديد الأسباب الحقيقية التي أدت إلى جمع اللغة العربية وتدوينها في المعاجم اللغوية منذ بداية القرن الهجري الأول، ولتحقيق هذا الهدف قسمنا المقال إلى ثلاثة محاور: حاولنا في الأول تحديد البواعث المساهمة في نشأة الصناعة المعجمية العربية وقمنا بتصنيفها، وحددنا في الثاني مجمل مراحل جمع اللغة، وانتقلنا في الثالث لبيان الشروط التي اتخذها اللغويون لضبط عملية جمع الألفاظ من جهة، وتطرقنا للطرائق التي اعتمدت في عملية الجمع من جهة ثانية. وقد سلطنا في ذلك المنهج الوصفي التحليلي باعتباره من أنجع المناهج في الدراسات اللغوية بصفة عامة والمعجمية بصفة خاصة. ومن أبرز الخلاصات التي توصلنا إليها في هذا المقال: كون الدفع الديني -المتمثل في الرغبة في فهم القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف- من أهم الأسباب التي أدت إلى جمع اللغة العربية وتدوينها في المعاجم وبالتالي نشأة الصناعة المعجمية العربية.

**الكلمات المفتاحية:** الصناعة المعجمية، عملية جمع اللغة، تدوين اللغة، المعاجم.

## The collection of Arabic language and the emergence of dictionaries (Motives - phases - Methods - Restrictions)

### Abstract:

This article seeks to identify the real causes that led to the collection of the Arabic language and its codification since the beginning of the first Hijri century in linguistic dictionaries, and to achieve this goal we divided the article into three axes: In the first we tried to identify the factors contributing to the emergence of the Arabic lexicography, and we identified in The second the overall language collection stage, and we moved on to the third to explain the conditions that linguists have taken to set the process of collecting words from one side, and we discussed the methods adopted in the collection process on the other hand. We have followed in that descriptive and analytical approach as one of the most effective approaches in linguistic studies in general and lexicographical in particular.

**Key Words:**Lexicography - Language collection process- language coding – dictionaries.

### مقدمة

من المقرر أن حركة جمع مفردات اللغة العربية قد بدأت في مرحلة متقدمة يمكن التأريخ لها ببداية القرن الأول للهجرة بفعل مجموعة من الدوافع الدينية واللغوية والسياسية... وتطورت هذه الحركة بشكل كبير في القرن الثاني للهجرة واستمرت على هذا النحو حتى القرن الرابع. وأثناء ذلك انتشرت مجموعة من المراكز الثقافية (كالبصرة والكوفة وبغداد) التي كان يأتي إليها أعراب البادية فيقصدون الرواة لأخذ اللغة والشعر عنهم. ومع ذلك فإن بعض اللغويين لم يكتفوا بما كانوا يسمعون عن هؤلاء وهاجروا إلى البوادي وارتحلوا بين القبائل العربية الموغلة في البداوة والبعيدة عن الحواضر، وكانوا بذلك يحاولون استقراء اللغة وأخذها عن أهلها مباشرة. والملاحظ أنهم أثناء هذه العملية لم يجمعوا ألفاظ اللغة مجردة، بل سجلوها بمعينة سياقات استعمالها المختلفة. فضلا عن ذلك، لم يقتصروا "على سماع اللغة وحدها، وإنما يجمعون بجانبها كل ما انتهى إلى سمعهم من الأشعار والأمثال والخطب والأسجاع والأخبار والقصص والروايات التاريخية والأدبية، فيدونونه في قرطيسهم، ثم يعودون بما حملوه فيعرضونه في مجالسهم العلمية" (الودغيري، ٢٠١٩، ص ١٩١). إن غنى التجربة المعجمية العربية يدفعنا لطرح مجموعة من الأسئلة من أهمها:

- ما الدافع الرئيس لنشأة الصناعة المعجمية العربية؟
- ما سبب تراجع المعاجم العربية منذ القرن الخامس الهجري مع العلم أن العرب كان لهم السبق في صناعة المعاجم؟
- كيف يمكن الاستفادة من الأخطاء المنهجية التي سقطت فيها المعاجم العربية القديمة لأجل إحياء المعجم العربي الحديث.
-

## أهداف البحث:

- التعرف على بواعث جمع اللغة العربية؛
- تحديد العلاقة بين جمع اللغة ونشأة المعاجم العربية؛
- تحديد مراحل جمع اللغة ومراحل تطور الصناعة المعجمية العربية؛
- الإشارة إلى الطرائق والشروط المعتمدة في عملية جمع اللغة؛
- الإشارة إلى بعض الأخطاء التي سقط فيها جامعو اللغة وأثرت على المدونة اللغوية للمعاجم العربية.

لعل أول سؤال يتبادر إلى ذهن المهتم بتاريخ المعجمية العربية هو الدوافع الكامنة وراء نشأة التألف المعجمي خاصة والتأليف اللغوي عامة. خاصة إذا علمنا أن عملية إنجاز المعاجم ليست خطوة عادية في تاريخ المجتمعات، بل هي نقلة نوعية وضرورة لا محيد عنها للمجتمعات التي تحترم نفسها، وتسعى إلى تدوين ألفاظ لغتها، وحفظ ثقافتها.

لأجل الإجابة عن التساؤلات السابقة سننطلق من الفرضيات التالية:

- الدافع الرئيس لنشأة المعجمية العربية هو الدافع الديني؛ كما هو الشأن بالنسبة لعلوم الآلة بصفة عامة.
- لم تستطع المعاجم أن تتطور وتواكب نمو اللغة العربية؛ لأن مفهوم القدماء للفصاحة المعجمية لم يكن ينظر إلى اللغة نظرة تطويرية.
- نعتقد أن لكل زمن لغته وفصاحته وتطور اللغة يفرض علينا إعادة النظر في مفهوم الفصاحة كل مرة؛ لأن الفصاحة فصاحات كما يقول الباحث رشاد حمزاوي.

## ١- بواعث نشأة الصناعة المعجمية العربية:

يبدو من خلال الاطلاع على مجموعة من المراجع المتخصصة في الصناعة المعجمية أن ثمة تباينا في وجهات النظر حول السبب الرئيس لتأليف المعاجم. وعموما يمكن القول إن أسباب التأليف المعجمي في جميع الحضارات متعددة. منها ما علمي، وما هو ديني، وما هو تواصل. ونحن نعتقد أن التفكير في إنجاز معجم للغة ما لا يتم إلا إذا دعت إليه أسباب متعددة ومتداخلة؛ ومعنى هذا أن تأليف المعجم تتداخل فيه الأسباب العلمية بالدينية والثقافية والسياسية...، غير أننا نؤكد في الوقت نفسه على أن نسبة حضور هذه الدوافع تختلف من معجم لآخر، ومن حضارة لأخرى؛ فمنها ما يكون الباعث الأساسي إليها علميا والبواعث الأخرى ثانوية، ومنها ما يكون الغرض الرئيس منه دينيا والأسباب العلمية والثقافية خادمة لما هو ديني فقط، وهكذا دواليك. ولما كان اهتمامنا منصبا على دراسة قضايا المعجمية العربية، فإننا سنحاول في الفقرة الموالية تحديد الأسباب الموضوعية والذاتية لنشأة التأليف المعجمي العربي، ونقترح تقسيم هذه الدوافع إلى ما يلي:

### ١.١. الدوافع الدينية:

لا شك أن حياة العرب قد تغيرت جذريا بعد الإسلام؛ فقد ارتبط فهم الدين الجديد بفهم النص القرآني لأجل استنباط الأحكام التي يقرها والعمل بها بشكل صحيح. وغني عن البيان أن النص القرآني مختلف عن النصوص المكتوبة آنذاك؛ فلأجل التعبير عن مضامينه ونظراته الجديدة للحياة وظف "معجما له مفرداته وتركيبه ودلالاته واستعمالاته الخاصة" (الودغيري، ٢٠١٩، ص ١٩٢) ولا شك أن استيعاب هذه المضامين يستلزم حفا وافرا من علوم اللغة العربية وخصائصها بما في ذلك التمكن من طرائق العرب في التعبير

كما يتجلى ذلك في أشعارهم وأمثالهم وخطبهم. سيما أن القرآن له دلالات مختلفة لأنه "النص الذي به يتعبد ويقتدى دينيا واجتماعيا وخلقيا وإليه يحتكم شرعيا وقضائيا، وهو فوق هذا وذاك، نص يحتج به لغويا وبلاغيا وأسلوبيا" (الودغيري، ٢٠١٩، ص ١٩٠). وقد أدت هذه الحاجة إلى الاهتمام بالدراسات اللغوية بصفة عامة والمعجمية بصفة خاصة. ويمكن تحديد الدواعي الدينية لنشأة الصناعة المعجمية العربية في العناصر التالية:

- السعي إلى حفظ القرآن الكريم من الأخطاء المرتبطة بكيفية نطق الألفاظ، أو فهم دلالتها؛ فقد "وجه اللغويون جل اهتمامهم منذ بداية عصر التدوين إلى فهم معاني هذه الألفاظ، ووضع القواعد النحوية لها حرصا منهم على إيجاد أسس سليمة لقراءة القرآن الكريم، وهكذا تكون حركة التأليف اللغوية قد انبثقت مع الإسلام، وكان صاحبني عبد الله بن العباس أول من تقدم لتفسير غريب القرآن الكريم مشروحا بكلام العرب، وصنيعه هذا هو صنيع معجمي" (الصوفي، ١٩٨٦، ص ٤١).
- اعتبار بعض اللغويين القدماء اللغة العربية جزءا لا يتجزأ من العقيدة الإسلامية؛ فالثعالبي مثلا يقول في كتابه فقه اللغة "من أحب الله تعالى أحب رسوله محمدا؛ ومن أحب الرسول العربي أحب العرب؛ ومن أحب العرب أحب العربية؛ التي نزل بها أفضل الكتب على أفضل العجم والعرب؛ ومن أحب العربية: عني بها، وثابر عليها، وصرف همته إليها... والعربية خير اللغات والألسنة، والإقبال على تفهمها من الديانة؛ إذ هي أداة العلم ومفتاح التفقه في الدين" (الثعالبي، ١٣١٧ هـ، من المقدمة بتصرف).
- الرغبة في شرح كل من غريب القرآن وغريب الحديث؛ فقد تضمن القرآن والحديث كثيرا من الألفاظ الغامضة ما دفع اللغويين لمحاولة فهم معانيهما بالاستناد إلى الشعر؛ فهذا حبر الإسلام عبد الله بن العباس يقول: "الشعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه"، ويضيف في نفس السياق "إذا تعاجم شيء من القرآن فانظروا في الشعر، فإن الشعر عربي" (السيوطي، ١٩٨٧، ج ١، ص ٢٤٤).
- يبدو مما سلف، أن الحاجة إلى التمكن من اللغة العربية وأساليبها كان حاجة ملحة خاصة بعدما نشأت على القرآن الكريم مجموعة من العلوم الدينية وغير الدينية من فقه وأصول وحديث وتفسير وقراءات وتجويد وتاريخ وبلاغة وصرف ونحو وغيرها "فزادت الحاجة إلى العربية بعد أن توسعت دائرة العلوم الدينية وتعلمها، وأصبحت هذه اللغة واجبا ضروريا للعلم الضروري (الشرعي) والعلوم المساعدة عليه (علوم الآلة)، ولغة العلم والتعلم بعد ذلك في كل المجالات" (الودغيري، ٢٠١٩، ص ١٩٠).

## ٢,١. الدوافع اللغوية:

- صيانة اللغة العربية من اللحن والعجمة؛ ولعل هذا ما جعل "العمل الميداني [للمعجميين] وما يتضمنه من توجهات علمية كانت تدعمه اقتناعات إيدولوجية ودينية، مما جعلهم يستبعدون لغة الحديث اليومي، وما كان يسمى بالدخيل والمبتذل والغريب الوحشي" (أبو العزم، ١٩٩٧، ص ١٩).
- شرح ألفاظ اللغة العربية وبيان دلالاتها وسياق استعمالها؛ ف"العرب لم يكونوا يعرفون كل ألفاظ لغتهم؛ فكثرا ما كان الرسول (ص) يوظف ألفاظا لا يدرك الصحابة دلالاتها وإن كان لهم نصيب وافر من بيان اللغة العربية، ما جعل الإمام علي يقول للنبي: يا رسول الله، نحن بنو أب واحد، ونراك تكلم العرب بما لا نفهم أكثره" (الصوفي، ١٩٨٦، ص ٣٢).

- حفظ اللغة العربية من الضياع والاندثار؛ فقد ساهم انتشار الإسلام في دخول أمم غير عربية إلى الإسلام، فبدأ اللحن والخطأ يشيعان في اللغة العربية ومن ثم "نشأت الحاجة إلى التدوين لإشاعة قواعد علمية في محاولة مبتكرة لتأسيس دعائم اللغة وحمايتها من التقهقر والتردي، ومن بين هذه الدعائم إيجاد المعجم العربي الخالص" (العزم، ١٩٩٧، ص ١٢).
- تحديد المعاني المعجمية من الاصطلاحية؛ فمع ظهور الإسلام اكتسبت مجموعة من الألفاظ دلالة جديدة وهي التي تعرف بالدلالة الاصطلاحية؛ وقد أشار إلى ذلك ابن فارس بالقول "فكان مما جاء عن الإسلام ذكر المؤمن، والمسلم والكافر والمنافق. فهذه الكلمات جميعها عربية الأصل كانت لها دلالات غير التي حملت إياها".
- حاجة الشعراء والخطباء والأدباء ومتكلمي اللغة عموماً لمخزون لغوي ومفردات متنوعة من موروثهم اللغوي الذي تراكم عبر أزمنة طويلة.

يظهر بجلاء أن الهم اللغوي كان حاضراً كذلك وساهم بشكل مباشر في نشأة الصناعة المعجمية العربية؛ حيث "أصبح يخشى على العربية من الفساد والتغير الذي يؤدي مع توالي الأزمان إلى نشوء لغات بعيدة الصلة في معجمها ونحوها وأصواتها وتراكيبها عن العربية التي نزل بها القرآن ودون بها الحديث والآثار النبوية، وفي ذلك خطر على الدين نفسه، كما هو خطر على وحدة الأمة وتواصل شعوبها وأجيالها" (الودغيري، ٢٠١٩، ص ١٩٣).

### ٣,١. الدوافع السياسية:

- اعتبار اللغة أداة للسيطرة على السلطة السياسية والاجتماعية؛ فاللغة العربية لم تكن وسيلة للتمكن من الدين الجديد (الإسلام) فقط، بل أصبحت "ضرورة عملية لترسيخ سيطرة أجهزة الدولة على الأقاليم والولايات، وتنظيم دواليبها، وتوسيع نطاق التبادل التجاري فيما بينهما" (أبو العزم، ١٩٩٧، ص ١١). ولما كانت الدولة الإسلامية قد توسعت وأصبحت مترامية الأطراف ومتعددة الأعراق، وأصبحت اللغة العربية هي وسيلة التواصل في مجموعة من المجالات ولغة القرارات الرسمية ولغة التعليم والقضاء والحياة العامة، فقد استوجب الأمر ضرورة نشر تعليم اللغة العربية بين المسلمين الذين ليسوا عرباً.
- ظهور مجموعة من المصطلحات السياسية والإدارية والمالية بعد اتساع مجال الدولة الإسلامية كالخلافة والإمارة...
- تغير وضع اللغة العربية بفعل اتساع رقعة الأمة العربية والإسلامية؛ حيث "تحولت العربية من كونها لغة قوم بعينهم (وهم العرب)، كما كان شأنها قبل الإسلام، إلى لغة مشتركة جامعة ناطقة باسم الأمة بسائر أقاليمها وطوائفها وشعوبها وأعراق أبنائها وثقافتهم ولغاتهم ولهجاتهم. يجمعهم دين واحد وحضارة واحدة، وينتمون إلى ثقافة مركبة" (الودغيري، ٢٠١٩، ص ١٩٣).

### ٤,١. الدوافع الثقافية والحضارية:

تتمثل هذه الدوافع في السعي إلى حفظ تراث الأمة العربية الإسلامية بمكوناتها المتعددة وثقافتها المتنوعة لأجل حفظ ذاكرتها الجماعية من التلف والضياع. والسبيل إلى ذلك هو جمع وحفظ ألفاظ اللغة؛ فمن المعلوم أن اللغة هي ذاكرة أهلها؛ إذ تعبر عن تصورهم للحياة، وتقدم صورة واضحة عن أفكارهم ومعتقداتهم، وهوياتهم وعاداتهم وتقاليدهم، وثقافتهم بكل تجلياتها، كيف لا وهي التي تعبر عن أخبارهم وأحوالهم ومآكلهم وملبسهم وحرفهم ومهنهم؛ فاللغة هي الوسيلة التي يمكن أن تعبر بها عن كل هذه التفاصيل وهي القادرة على التعبير عن كل شيء ومفهوم سواء كان مجرداً أو محسوساً. إن اللغة باختصار هي سجل الأمة المعبر عن تاريخها وهويتها.

## 5.1 الدافع التعليمي :

لقد أصبح تعليم وتعلم اللغة العربية أمر محتوما في ظل الوضعية الجديدة التي تميزت بتعدد الأعراق وتنوع الثقافات؛ ومن ثم "نشأت الحاجة إلى تمييط هذه اللغة ومعيرتها واستنباط قواعدها التي تصفها من نحو وصرف وأصوات، كما أصبحت الحاجة ماسة كذلك إلى جمع مفرداتها وشتات معجمها وتراكيبها وحفظ أساليبها". ولا شك أن ذلك هو ما أدى إلى تدوين اللغة العربية وتم ذلك عن طريق "نقلها من مستوى الحفظ في الذاكرة والتداول الشفوي إلى طور التسجيل والحفظ بالكتابة والتدوين...ومن مجموع ما تم تحصيله وتدوينه، قام علماء اللغة، كل في تخصصه، باستنباط القواعد ووضع المؤلفات العلمية التوعيدية والتعليمية، وتصنيف القواميس المختلفة كان بدوره يخدم الهدف العام، وهو فتح طرق وإحداث وسائل مختلفة لضرورة لتعليم اللغة العربية ونشرها وتعميم استعمالها" (الودغيري، ٢٠١٩، صص ١٩٤-١٩٥).

حاصل القول، لقد ظهر التأليف المعجمي استجابة لحاجات علمية معينة شأنه في ذلك شأن أي نشاط ثقافي أو علمي آخر، غير أن المتفحص لتاريخ المعاجم العربية سيلاحظ ارتباطها الوثيق بالنص الديني ما يدفعنا للقول بأن الباعث الأول على تأليفها ليس هو حفظ اللغة، ولا تحديد طريقة وسياقات استعمالها-في المقام الأول-...، وإنما الرغبة في فهم القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، أما البواعث الأخرى فهي مكملة تختلف درجة تأثيرها في الصناعة المعجمية العربية من معجم لآخر ومن عصر لآخر. وعليه، فإن الرغبة في فهم القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف هي ما دفع اللغويين العرب القداماء للتفكير في تأليف المعاجم ولم يكن ذلك ممكنا بدون جمع مدونة لغوية تعكس لغة العرب، ما دفع اللغويين لجمع اللغة العربية متبعين في ذلك طرائق دقيقة، والتزموا بشروط لسانية محددة. وهذا سنتطرق إليه في الفقرات الموالية من خلال الإجابة عن الاسئلة التالية: ما مراحل جمع اللغة العربية؟ وما الطرائق المعتمدة في ذلك؟ وما هي الشروط التي وجَّهت البحث المعجمي عند العرب القداماء؟

### ٢- مراحل جمع اللغة

من الثابت أن جمع اللغة العربية قد بدأ مع بداية القرن الهجري الأول نتيجة مجموعة من الدوافع منها ما هو ديني وما هو لغوي وتعليمي وما هو إيدولوجي سياسي. وتشير الكتب التي اهتمت بتاريخ المعاجم إلى أن بدايات التأليف المعجمي كان على شكل مجموعة من الرسائل التي جمعت فيها الألفاظ حسب مواضيع معينة: كاللبن، والخيل والنبات، والحيوان، والإنسان... ثم ظهرت فيما بعد المعاجم العامة التي حاولت أن تستوعب جميع المجالات والحقول المعرفية المختلفة. وعموما يتفق الدارسون<sup>١</sup> على أن جمع اللغة قد مر بمراحل ثلاث أو بعبارة أدق بثلاثة أشكال" لأن هذه الأشكال هي في الحقيقة متداخلة ومتعاصرة وليست مراحل متعاقبة تحدها الفواصل الزمنية" (الطرابلسي، ١٩٨٦، ص ١١) ويمكن تحديد هذه المراحل فيما يلي:

- **المرحلة الأولى:** تدوين ألفاظ اللغة العربية وشرح دلالتها بدون تصنيف ولا ترتيب؛ أي أن الألفاظ كانت تجمع بدون منطوق محدد؛ فهناك لفظة في النخيل، وثانية في الأنواء، وثالثة في الإبل وهكذا دواليك.

١- من الدارسين الذين اقترحوا نفس التقسيم نجد:

علي القاسمي في كتابه المعجمية العربية بين النظرية والتطبيق، ص ٢٧.

بوشني العطار في كتابه المعاجم العربية رؤية تاريخية وتقويمية، ص ٢١.

أحمد الطرابلسي في كتابه حركة التأليف عند العرب في اللغة والأدب صص ١١-٢٢.

وقد قام بهذه العملية مجموعة من اللغويين منذ نهاية القرن الهجري الأول بفضل جهودهم الجلييلة التي نحت منحيين: الأول تمثل في مشافهة الأعراب والسماع عنهم إما أثناء قدومهم إلى الحواضر، أو عبر الاتصال المباشر بهم في بواديهم. والثاني تجلى في الاستعانة بالمصادر الأساسية للغة العربية لجمع ألفاظها على غرار القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والأدب بشعره وأمثاله وأخباره ونوادره.

- **المرحلة الثانية:** جرى فيها تدوين ألفاظ اللغة في رسائل صغيرة وفق ترتيب معين سواء على مستوى الموضوعات، أو على مستوى الحروف، أو على مستوى الأبنية. ومن الرسائل الممثلة لهذه المرحلة نجد: كتاب المطر لأبي زيد الأنصاري وكتاب الخيل للأصمعي وكتاب فعلت وأفعلت للزجاجي...، ويمكن اعتبار هذه الرسائل نواة المعجم العربي ف"هذه الرسائل الصغيرة سواء ما وصل منها وما فقد، إنما ذابت في المعاجم الجامعة التي ألفت فيما بعد" (الطرابلسي، ١٩٨٦، ص ١٤)

- **المرحلة الثالثة:** ألفت فيها المعاجم العامة المنظمة عن طريق جمع عدد هائل من الألفاظ اللغوية، وترتيبها وفق نظام معين. ولعل أول من قام بذلك هو الخليل بن أحمد الفراهدي في معجمه "العين"؛ الذي اختار أن يؤلفه تبعاً للترتيب الصوتي القائم على ترتيب الحروف حسب مخارجها من أقصى الحلق إلى الشفتين، ثم تطور التأليف المعجمي بعد ذلك وظهرت تصانيف معجمية كثيرة وفقاً لأنماط ترتيبية مختلفة لأجل الاستجابة لمتطلبات الناس المتعددة.

وإلى جانب ما سبق، يضيف باحثون<sup>٢</sup> مرحلة أخرى إلى مراحل جمع ويورخ لها عادة ببداية عصر النهضة وحركة الإحياء حين حاول المعجميون المحدثون تأليف معاجم عربية بمواصفات حديثة، متخذين معاجم اللغات الحية خاصة الفرنسية والإنجليزية نموذجاً للاقتداء؛ فحاولوا الاستفادة منها سواء فيما يتعلق بترتيب المداخل المعجمية والمعاني، أو الإخراج وذلك بإدخال الرسوم والصور الموضحة والأعلام... كما هو الشأن بالنسبة لـ "المنجد" للويس معلوف، و"المعجم الوسيط" الذي صدر عن مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

### ٣- طرائق جمع اللغة:

معلوم أن البحث اللغوي عند العرب قد اتخذ أشكالاً متعددة، نظراً لتعدد المنهجيات الموظفة من جهة، واختلاف زاوية الاهتمام باللغة العربية من جهة ثانية. وإذا بحثنا في التراث العربي القديم عن الطرائق التي اعتمدت في جمع اللغة، سنجد بأن اللغويين لم يجمعوا اللغة بشكل اعتباطي، بل استندوا على مجموعة من المعايير العلمية الدقيقة التي لا يزال المشتغلون باللسانيات الحديثة يؤكدون على أهميتها ونجاحها وارتباطها الوثيق بالبحث اللساني المتخصص؛ فقد شد اللغويون رحالهم إلى البوادي لجمع اللغة العربية في عصر التدوين وراحوا يتلقونها من منابعها الأصلية من خلال مشافهة الأعراب ونقل أساليبهم الفصيحة؛ وذلك من خلال طريقتين أساسيتين: الأولى، تتمثل في السماع المباشر من الأعراب في بواديهم. والثانية، تجلت في الرواية.

١,٣. **السماع عن الأعراب:** يقصد به أخذ اللغة عن متكلميها الأصليين الذين لم يخالط لسانهم ألسنة أخرى أو على الأقل لم يتأثر بها؛ وقد تحقق ذلك للغويين من خلال طريقتين: الأولى، عندما تنقلوا إلى الصحراء وراحوا يشافهون عرب البوادي مباشرة ممن تتصف لغتهم بالفصاحة وتبتعد عن اللحن والخطأ.

٢- منهم مثلاً عباس الصوري في كتابه الرصيد المعجمي الحي في بيداغوجية اللغة العربية، ٢٠٠٢، ص ١٤.

والثانية، مثلتها أعمال بعض الأعراب الذين كانوا يفدون إلى الحواضر، ويحملون معهم مخزون لغوي عربي أصيلا إلى المراكز الثقافية في البصرة والكوفة فكان العلماء واللغويون يأخذون عنهم اللغة.

٢,٣. الرواية: وتدل في عرف اللغويين على حفظ الشعر ونقله وإنشاده، ثم صارت فيما بعد تستوعب أيضا الحديث الشريف والمأثور من كلام العرب. وغني عن البيان أن السماع أسبق على الرواية؛ وإذا كانت مرحلة السماع تتسم بالدقة والصواب لأخذ اللغويين للغة مباشرة عن العرب في مضاربهم بالصحراء، فإن مرحلة الرواية قد كانت -رغم خدمتها الجليلة للغة العربية- تشوبها شوائب عدة لعل أهمها قضية الانتحال، وعدم الدقة والذاتية.

يلاحظ من خلال ما سلف، أن اللغويين قد اهتموا بجمع اللغة ووضعوا لذلك مجموعة من الطرائق العلمية الدقيقة؛ فالبدية كانت بخروج مجموعة من العلماء إلى البادية لمشافهم الأعراب من أبرزهم: حماد الراوية، والمفضل الضبي، وخلف الأحمر، والخليل بن أحمد الفراهيدي... وعنهم أخذ علماء آخرون كالأصمعي وأبي زيد الأنصاري...، ولم يكتف اللغويون أثناء عملية الجمع بتحديد طريقة الجمع فقط، وإنما تجاوزوا ذلك ووضعوا شروطا ومعايير تضبط هذه العملية وتحافظ على صفاء اللغة. وغني عن البيان أن المعيار المركزي الذي وجه جهود القدماء في مختلف مناحي الدرس اللغوي هو معيار الفصاحة، الذي ظل لصيقا بالفكر اللغوي العربي منذ نشأته؛ ولطالما قيد جهود المعجميين أثناء تأليفهم للمعاجم اللغوية؛ ذلك أن اللغويين قد وضعوا معايير تنتهي عندها الصحة اللغوية وصدق الرواية؛ وعملوا على وضع قيود معينة تضبط عملية جمع وتدوين اللغة من جهة وشروط الاحتجاج بها من جهة ثانية. ولأجل الاقتراب أكثر من هذه القضية سنحاول الإجابة عن الأسئلة التالية:

ما المقصود بالاحتجاج في سياق الدرس اللغوي العربي القديم؟ وما هي شروط الفصاحة التي أطرت الصناعة المعجمية العربية قديما؟ وما مدى سلامة ونجاعة هذه الشروط؟ وما الاختلافات التي نتجت عن الالتزام بشروط الفصاحة؟

#### ٤- شروط الاحتجاج اللغوي

يدل الاحتجاج اصطلاحا على " إثبات صحة قاعدة في النحو والصرف والبلاغة، أو استعمال كلمة في تركيب بدليل نقل صح سنده إلى عربي يصح الاحتجاج به" (سعيد و جنيدي ، ١٩٨٥ ، صص 55- 56) ويؤكد الباحثون على أن لجوء اللغويين القدماء للاحتجاج مرده إلى غرضين: أولهما لفظي؛ ويروم تأكيد استعمال كلمة ما من حيث اللغة والنحو والصرف. وثانيهما معنوي؛ ويرتبط بإثبات معنى كلمة ما. ومن المعروف أن عمل اللغويين قد كان محكوما بمجموعة من المعايير التي حددت اللغة التي يصح الاحتجاج بها. والناظر في الكتب اللغوية ومقدمات المعاجم العربية سيجد بأن عملية جمع اللغة قد تمت بمراعاة ثلاثة معايير: الأول مرتبط بالمكان، والثاني بالزمان، والثالث بالصحة.

#### ٤,١. معيار الزمن:

من الثابت أن اللغويين القدماء قد اهتموا بوضع حدود زمنية للغة التي يصح الاحتجاج بها؛ فالعرب "الذين يوثق بعربيتهم عرب الأمصار إلى نهاية القرن الثاني الهجري، وأهل البادية إلى نهاية القرن الرابع" (القطار، ١٩٩٠، ص ١٢)؛ ففي سياق الاستشهاد بالشعر مثلا يقف علماء اللغة عند حدود الشعر الإسلامي حوالي (150 هـ)، ويعد إبراهيم بن هرمة (ت 150) آخر شاعر يستشهد به ولا يحتج بمن جاء بعده، وقد اتبعت المعاجم العربية القديمة هذا المعيار الزمني ما جعل مدونتها اللغوية تعاني من مشاكل عدة يمكن تحديدها فيما يلي:



- عدم مواكبتها للتطور اللغوي الذي لحق الألفاظ؛

- عدم تمثيل المداخل المعجمية للواقع اللغوي؛

- إهمال مجموعة من الألفاظ التي ابتكرها المولدون ومن بعدهم...

#### ٢،٤. معيار المكان:

لقد وضع اللغويون مجموعة من الشروط المكانية التي قيدت عملية جمع اللغة وتدوينها؛ فإذا كان زمن الاحتجاج يقف عند حدود الشعر الإسلامي حوالي (150 هـ)، فإن المكان قد تم ربطه "بفكرة البداوة والحضارة، فكلما كانت القبيلة بدوية أو أقرب إلى حياة البداوة كانت لغتها أفصح، والثقة فيها أكثر، وكلما كانت متحضرة، أو أقرب إلى حياة الحضارة كانت لغتها محل شك ومثار شبهة، ولذلك تجنبوا الأخذ عنها" (مختار عمر، ١٩٨٨، صص 50-51). والفكرة التي وجهت اشتغال اللغويين آنذاك هي الاعتقاد بأن الانعزال في وسط الصحراء، وعدم الاتصال بالأجناس الأجنبية يحفظ للغة نقاوتها ويصونها عن أي مؤثر خارجي. ونجد كثيرا من اللغويين قد تحدثوا عن القبائل التي يصح الاستشهاد بلغتها ولعل أبرزهم الفرابي الذي نجد له نصا شهيرا يقول فيه: "والذين عنهم نقلت اللغة العربية وبهم اقتدي، وعندهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم: قيس وتميم وأسد، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه. وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف. ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم. وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضري قط، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم" (السيوطي، المزهري في علوم اللغة وأنواعها، ١٩٦٣، صص ٢١١-٢١٢).

نتتهي مما تقدم، إلى أن اللغويين القدماء قد اهتموا باللغة العربية وانعكس ذلك على طريقة جمعها؛ فقد كانوا حازمين في ذلك ورفضوا الأخذ عن مجموعة من القبائل العربية وإن تحقق فيها شرط الزمن. فقد قبلوا فقط بلغتي نجد (التي أخذت عن قبائل أسد وقيس وتميم وطيء) والحجاز (لغة القبائل التي كانت تقيم في المدينة وما حولها) لأن أهلها من العرب الفصحاء الذين يتسمون بالعناد والجفاء، ومن ثم فهم لا ينفقون ولا يذعنون للغة غير العربية، في حين أن القبائل التي لم يؤخذ عنها كان أهلها "مخالطين لغيرهم من الأمم، مطبوعين على سرعة انقياد ألسنتهم لألفاظ سائر الأمم المطيفة بهم من الحبشة والهند والفرس والسرياليين وأهل الشام وأهل مصر..." (الطار، ١٩٩٠، ص ١٢) علاوة على ذلك، حدد اللغويون الفصحاة في عنصرين أساسيين: الأول، هو لغة الأعراب الأشد بداوة. والثاني، اعتبار لغة قريش أفصح لغات العرب. وهذا ما يشير إليه الفرابي بقوله: "كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعا، وأبينها إبانة عما في النفس" (السيوطي، المزهري في علوم اللغة وأنواعها، ١٩٦٣، صص ٢١١-٢١٢). ولما كان اللغويون يعتبرون القرآن الكريم هو النموذج الأرقى للفصحاة اللغوية، فقد أدى ذلك إلى اعتبارها المثال الأجود للفصحاة لارتباطها الوثيق بالقرآن الكريم من جهة، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم من قريش.

لا شك إذن أن الحرص على نقاء اللغة العربية كانت له مجموعة من الدوافع والمبررات وساهم بشكل كبير في تقليص التأثيرات

على اللغة العربية من قبل اللغات الأخرى التي كانت متاخمة لها،

لكن رغم ذلك أقصت هذه القيود -سواء المرتبطة بالزمن أو المكان - جزءا لا يستهان به من العربية وحكمت عليه بالبقاء خارجها؛ والمقصود هنا لغة تلك القبائل<sup>٣</sup> التي لم تكن تقع داخل الحدود الجغرافية الضيقة التي رسم اللغويون القدماء حدودها.

#### ٤,٣. معيار الصحة:

لقد كان التراث العربي مخزناً في الذاكرة قبل أن يتم نقله إلى الكتب بعد مرحلة التدوين؛ وقد تخلل هذه المرحلة بعض الشوائب فظهرت مجموعة من الظواهر كالانتحال والتلفيق...، وحاول المعجميون تجنب هذه الظواهر عبر إقرار معيار ثالث هو معيار الصحة؛ ومعناه التأكد من كون الألفاظ المدونة قد أخذت بالفعل ممن يصح الاستشهاد بهم (أي الذين تحقق فيهم شرطا الزمان والمكان) فإذا ثبت استعمالهم لها جمعت ودونت، وإذا لم يثبت ذلك رُفضت وأهملت.

ومن المعلوم أن الشروط التي حكمت عملية جمع اللغة وتدوينها لم يلتزم بها المعجميون بشكل مطلق؛ فكثيرا ما نصادف -ونحن نطالع بعض المعاجم العربية- وجود أشعار ونصوص لأدباء من خارج مرحلة الاستشهاد التي حددها اللغويون القدماء، ما يوحي بأن الالتزام ب هذه القيود تختلف درجته من معجمي لآخر. والمتأمل للتراث المعجمي سيجد أمثلة متعددة لذلك ولا "أحد ينكر أن في قواميسنا القديمة الفصيحة ألفاظا وتعبيرات كثيرة منسوبة للهجات وقبائل غير داخلية في شرطي الزمان والمكان وأخرى مشكوك في صحتها، وروايتها مضطربة ومتناقضة. وقد كان معروفا عن الكوفيين تساهلهم في الرواية والنقل، عكس البصريين الذين وصفوا بالتشدد. بل هناك من قال إن المعايير الثلاثة المذكورة هي منهج البصريين وغيرهم لم يتقيد بها" (الودغيري، ٢٠١٩، ص ١٩٧) وفي مقابل ذلك نجد أن عددا من المعجميين قد ألزموا أنفسهم بقيود خاصة - إلى جانب القيود السابقة- "فقد حاول الخليل مثلا أن يستوعب كل المستعمل من كلام العرب بكل أصنافه، وجاء ابن السكيت فاهتم بالغريب، وغيره اهتم بالنادر. أما ابن دريد فحاول الاقتصار على الجمهور من الألفاظ أي الشائع في الاستعمال دون الحوشي والغريب، وحاول الجوهري وغيره التقيد بالصحيح، وأطلق ابن منظور لنفسه العنان لجمع كل ما تفرق في غيره" (الودغيري، ٢٠١٩، ص ١٩٧).

#### نتائج البحث:

انطلاقا مما سبق نخلص إلى النتائج التالية:

- ساهمت مجموعة من البواعث في نشأة الصناعة المعجمية العربية منها ما هو ديني وما هو سياسي وما هو حضاري وثقافي وما هو تعليمي... إلا أن العامل الديني يبقى له الأثر الأكبر في ذلك؛ فمن خلال تتبع نشأة المعاجم خلصنا إلى أن الباعث لنشأة الصناعة المعجمية العربية ديني بالأساس؛

٣- يحدد الفراهي القبائل التي لم يؤخذ عنها قط بقوله: "لم يؤخذ لا من لحَم ولا من جُذام مجاورهم أهل مصر والقيبط، ولا من قُضاة وغسان وإباد مجاورهم أهل الشام، وأكثرهم نصارى يقرأون بالعبرانية، ولا من تغلب والنمر فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان، ولا من بكر مجاورهم التَّبَطُّ والفرس، ولا من عبد القيس وأزد عمان لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة، ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار الأمم المقيمين عندهم، ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وقد فسدت ألسنتهم. ينظر: المزهري للسيوطي، ج ١، ص ٢١١.

- مر التأليف المعجمي العربي بأربع مراحل أساسية قبل أن يستوي على الشكل المعروف اليوم؛ في المرحلة الأولى تم تدوين ألفاظ اللغة العربية وشرح دلالتها بدون تصنيف ولا ترتيب. وفي الثانية دونت ألفاظ اللغة في رسائل صغيرة وفق ترتيب معين سواء على مستوى الموضوعات، أو على مستوى الحروف، أو على مستوى الأبنية.
- وفي الثالثة ألفت المعاجم العامة المنظمة عن طريق جمع عدد هائل من الألفاظ اللغوية، وترتيبها وفق نظام معين. ومن الباحثين من يضيف مرحلة رابعة يؤرخ لها عادة ببداية عصر النهضة وحركة الإحياء حين حاول المعجميون المحدثون تأليف معاجم عربية بمواصفات حديثة، متخذين معاجم اللغات الحية خاصة الفرنسية والإنجليزية نموذجا للاقتداء؛
- اتبع اللغويون القدماء مجموعة من الطرائق العلمية لجمع اللغة لعل أهمها السماع والرواية، ووضعوا مجموعة من القيود لإدراج الألفاظ في المعاجم كقيود الزمان والمكان والصحة. ورغم أن هذه القيود قد حافظت على نقاء اللغة من جهة إلا أنها أسقطت جزءا مهما من العربية ولم تفسح له المجال للدخول إلى متون المعاجم ما جعل هذه لأخيرة في كثير من الأحيان لا تساير المفاهيم المستجدة في الحياة العربية وظلت تجتر ما كان سائدا قبل القرن الرابع الهجري.

## خلاصة

تلكم إذن هي المعايير التي حكمت التفكير المعجمي القديم، وهي التي أفرزت ما يصطلح عليه بلغة العرب أو اللغة الفصحى أو العربية الفصحى. وتجدر الإشارة إلى أن الفصاحة في اصطلاح صناع المعاجم تختلف عن الفصاحة عند البلاغيين؛ فإذا كانت عند المعجميين تقوم على شروط مرتبطة بالزمان والمكان والصحة. فإنها عند علماء البلاغة تستند على معايير جمالية في التميز بين الألفاظ وتحديد الفصيح من غيره. "فهم لا يشترطون في اللفظ: سوى حسن وقعه على السمع وسهولة جريانه على اللسان إذا كان لفظا مفردا، ثم حسن النظم والتأليف إذا كان كلاما مركبا، وذلك بغض النظر عن كون اللفظ أو التركيب قديما أو حديثا، من هذه القبيلة أو تلك" (الودغيري، ٢٠١٩، ص ١٩٩)، علاوة على ذلك، فإن جمع اللغة لغرض تأليف المعاجم لم يكن يخضع لمعيار كثرة الاستعمال كما هو الأمر في الدراسات النحوية؛ فالكلمات التي تخضع للمعايير السابقة تجمع وتدون حتى وإن كانت نادرة أو حوشية أو غريبة أو شاذة الاستعمال.

لقد أدت هذه القيود الصارمة إلى تضيق علماء اللغة على أنفسهم كثيرا في قضية الاحتجاج؛ وأقصى جزء كبير من اللغة العربية كما هو الأمر بالنسبة لكلام المولدين الذي لم يذكره اللغويون إلا في سياق إعجابهم بمعنى تناولوه في شعرهم؛ والمعنى بطبيعة الحال ليس من أمور اللغة ولا من نحوها وصرفها. ويعتبر حسن حمزة أن في هذه القيود خطأ منهجيا كلف العرب خسارة جزء كبير من اللغة العربية؛ إذ لم يعد في مدونات المعجميين سماع، وصارت مجرد نقل لما هو مدون سابقا. ولا شك أن في هذا اختزالا شديدا للغة وثقافة العرب والمسلمين ف"أين ما قام به العرب في عصورهم الذهبية بعد القرن الثاني للهجرة؟ أين أثر هذا في لغتهم؟ وكيف استجابت هذه اللغة لتكون لغة حضارة عربية إسلامية كبيرة قادت النهضة الفكرية في العالم على مدى قرون وقرون؟ أين ما ترجمه العرب من علوم اليونان وطوروه في الطب والفلسفة والفلك والرياضيات وغيرها من العلوم، ثم نقله الأوروبيون في نهضتهم الحديثة؟ أين ما قيل عن تقنن هذه الحضارة في طعامها وشرابها؟ أين ما يعبر عن افتنانها بأريائها؟ أين هذا الفيض من الألفاظ التي لا بد من أن الحضارة الجديدة ولدتها؟" (حمزة، ٢٠١٣، ص 250) إن هذه الأسئلة المشروعة تدفعنا للقول، بما لا يدع مجالاً للشك، بأن المعاجم اللغوية العربية لم تشتمل إلا على جزء يسير مما فاه به متكلمو اللغة العربية؛

وهو الجزء الذي يمثل حياة العرب في القرن الثاني للهجرة وما قبلها. والمتصفح للمعاجم العربية "يخل أن العرب ظلوا في القرن الثاني للهجرة ولم يتجاوزوه، لأن الجديد عندهم لم يجد له إلى المعجم طريقاً، فهو غير فصيح، وما كان كذلك فسيبلة أن يكون في لغة العامة حيث لا رقيب ولا حسيب" (حمزة، ٢٠١٣، ص 250) ولعل هذا ما جعل المستشرق الهولندي رينهارت دوزي يؤلف معجماً للعربية بعنوان المستدرك على المعاجم العربية، حاول أن يجمع فيه الألفاظ العربية التي بقيت خارج المعاجم وبلغ عدد صفحاته ألف وسبع مئة صفحة!

ويلاحظ أن التقليد قد هيمن على المعاجم العربية منذ انتهاء عصور الاحتجاج واستمر الأمر إلى العصر الحديث؛ فما زلنا نجد المعاجم لا تمثل الواقع اللغوي الذي تصفه؛ وعادة ما يقتصر المعجمي على إعادة نقل ما ورد في المعاجم السابقة مع بعض التعديلات سواء عن طريق الحذف أو الزيادة دون استقراء حقيقي للواقع اللغوي. وفي هذا السياق يؤكد عبد القادر عبد الجليل أن ثمة ظاهرة عامة أحكمت التصنيف في المعجم العربي، وهي اعتماد السابقين على اللاحقين من المصنفين، وإن روح التقليد هي الغالبة على المعاجم العربية، وكأن تلك الإفادة سنة متبعة، إلا ما اختطه كل لاحق لمعجمه من ظروف التلونات، وإرادة الظهور والتميز. هذا ما نجده واقعاً عيناً في فضائل المدارس المعجمية ومعايير تصنيفها (عبد الجليل، ٢٠١٤، صص ١١-١٢). إن السبيل الوحيد لإعادة المعجم العربي إلى سابق أمجاده هو العمل على وصف اللغة كما يستعملها أهلها اليوم، وهذا يعني بالضرورة التخلص من قيود الفصاحة المعجمية القديمة وتعويضها بقيود جديدة تتلاءم مع طبيعة اللغة العربية اليوم؛ فإذا كانت اللغة العربية قد نمت وتطورت منذ القرن الأول للهجرة فمن المنطقي كذلك أن تتطور نظرتنا إلى مفهوم الفصاحة وأن نراجعها في ضوء ما تقترحه اللسانيات الحديثة.

### لائحة المصادر والمراجع:

- أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبي. (١٣١٧ هـ). كتاب فقه اللغة وأسرار العربية. المطبعة الأدبية.
- أحمد مختار عمر. (١٩٨٨). البحث اللغوي عند العرب مع دراسة لفضية التأثير والتأثر. القاهرة: عالم الكتب.
- إسبر سعيد، و بلال جندي. (١٩٨٥). ، معجم الشامل في علوم اللغة العربية ومصطلحاتها. لبنان: دار العودة بيروت.
- أمجد الطرابلسي. (١٩٨٦). نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب في اللغة والأدب.
- بوشتي العطار. (١٩٩٠). ، المعاجم العربية رؤية تاريخية وتقويمية. الجديدة: كلية الآداب والعلوم الإنسانية.
- جلال الدين السيوطي. (١٩٦٣). المزهرة في علوم اللغة وأنواعها. القاهرة: مطبعة الحلبي.
- جلال الدين السيوطي. (١٩٨٧). الإتيقان في علوم القرآن.
- حسن حمزة. (٢٠١٣). المعجم العربي وهوية الأمة. تأليف مجموعة مؤلفين، اللغة والهوية في الوطن العربي إشكاليات التعليم والترجمة والمصطلح. بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

عبد العلي الودغيري. (٢٠١٩). القاموسية العربية الحديثة بين تنمية الفصحى وتحديث القاموس والتأريخ للمعجم. بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

عبد الغني أبو العزم. (١٩٩٧). المعجم المدرسي أسسه وتوجهاته. الرباط: مؤسسة الغني للنشر.

عبد القادر عبد الجليل. (٢٠١٤). المدارس المعجمية دراسة في البنية التركيبية. دار صفاء للنشر والتوزيع.

عبد اللطيف الصوفي. (١٩٨٦). اللغة ومعجمها في المكتبة العربية. دار طلاسات للدراسات والترجمة والنشر.

جميع الحقوق محفوظة © 2020، الباحث يوسف أمير، المجلة الأكاديمية للأبحاث والنشر العلمي.

(CC BY NC)